المطالعة المفيدة

لا بدَّ من ان يظهر للمطَّلع على هذا العنوان ان تقييدنا المطالعة بالمفيدة يدلُّ على ان منها ما لا يفيد . وهذا هو الواقع بل قد يكون من المطالعة ضرر كما ان المطالعة المفيدة لاحدٌ لفائدتها حتى لقد تغني عن الدرس في المدارس في بعض الاحيان

كتب السرجون هرشل الفلكي المشهور يقول « اني اذا طلبت من الله ان يوجد فيَّ خلقاً يبقى معي مهما تغيرت احوال الزمان والمكان ويكون ينبوع سرور لي وسلوى مدى العمر وترساً اتقي به نوائب الدهر فذلك الميل هو حب المطالعة »

وقال ادورد غبن اشهر مؤرخي الانكليز «اني افضل رغبتي في المطالعة على كل كنوز الهند»

قد تكون المطالعة لمجرَّد التسلية فيجد فيها الانسان لذةً وفي التسلية شيء من الفائدة وقد يفرط فيها حينئذٍ حتى يبلد عقلهُ ويصير قليل الحفظ لما يقرأهُ كمن يتخم من الاكل الكثير فلا تعود معدتهُ تهضم ما يلزم لغذاء جسمهِ . او تصير القراءة مجلبة للنوم كأنها نوع من المخدرات . وكل ذلك مطالعة قليلة الفائدة او لا فائدة منها بل منها ضرر وهي ليست المطالعة المفيدة المقصودة بهذه السطور وانما المطالعة المقصودة هي التي يتوخاها المرء بقصد الفائدة العلمية والادبية

اساس هذه المطالعة الكتب المفيدة . وكتبنا المفيدة غير قليلة ولكن بعضها مشوب بالسخافات والاضاليل . تأخذ كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري وهو من اجل كتبنا العلمية القديمة فلا تكاد تقرأ سطرين يوثق بهما حتى تقرأ سطراً او سطرين من السخافات . وتأخذ الكشكول فتجد فيهِ دراً ثمينة وبينها خرز وحجارة واقذار تنبو العين عنها . وعندنا من الكتب القديمة ما يعدُّ من النفائس في كل لغة كمقدمة ابن خلدون وكتاب كليله ودمنه وتهذيب الاخلاق وخزانة الادب وغرر الوظواط ومحاضرات الاصفهاني والعقد الفريد وثمرات الاوراق وريحانة الالباب وكتاب الانتصاف واسرار البلاغة وصبح الاعشى وحلبة الكميت والمثل السائر . وكتبنا الحديثة كثير منها غاية في الاجادة والفائدة موضوعة كانت لحضارة الاسلام وهي مترجمة كسر النجاح ولذلك لا يتعذَّر على طالب الفائدة ان يجد ضالتهُ منها

ولقد كانت الكتب المفيدة ولا تزال غذاء النفوس كما قال المصريون الاقدمون وكما قال كثيرون من اساطين العلم والفلسفة

قيل ارسل بعض الخلفاء يطلب احد العلماء ليسامره فلما جاءه الخادم وجده جالساً وحواليه الكتب وهو يطالع فيها فقال له ان امير المؤمنين يستدعيك فقال قُل له عندي قوم من الحكماء احادثهم فاذا فرغت منهم حضرت . فلما عاد الخادم الى الخليفة واخبره بذلك قال له ويحك مَن هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده قال والله يا امير المؤمنين ما كان عنده احد . قال فاحضره الساعة كيف كان فلما حضر قال له الخليفة مَن هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك فقال

لنا جلساء ما نَملُّ حديثهم ألبَّاء مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا
فان قلتَ اموات فلم تعدُ امرهم وان قلت احياء فلست مفنَّدا

وقد تكون هذه القصة موضوعة لكنَّ مغزاها صحيح وهي تدلُّ على اعتبار الاولين لكتب العلم والادب

وقال كارليل الكاتب الانكليزي الشهير « ان ما يصنعهُ الانسان في هذه الدنيا وابقاهُ واثمنهُ الكتب » وقال مكولي الكاتب السياسي الشهير « افضل ان اكون فقيراً في كوخ وعندي كثير من الكتب على ان اكون ملكاً لا يحب المطالعة » . والرجلان من ابناء الانكليز الذين نلوا انشاء عقل الانسان كتاباً الاَّ وهو في لغتهم او تُرجم اليها فقد ترجموا كتب فلاسفة اليونان والرومان وادبائهم وشعرائهم وكتب العرب والفرس والهنود والالمان والطليان والفرنسويين والهولنديين وكل الامم الاوربية القديمة والحديثة . وطبعوا كل كتاب منها مراراً على انواع مختلفة من القطع والورق حتى يتيسَّر اقتناؤهُ لكل احد وكثرت محلاتهم وجرائدهم وتنوعت حتى صارت بضاعة مزجاة بخسة الثمن ومع ذلك لا يزالون يغالون بها حتى نفضلها مكولي على تاج الملك

قال الفيلسوف لكي Locke في كتابه خريطة الحياة « ان اميال المرء التي تقتضي قوة طبيعية تضعف بتقدمه في السن ولكن ميلهُ الى المطالعة يقوى واذا احكم مطالعتهُ بالعقل صارت افعل الوسائل لتقوية الاخلاق الفاضلة فيه وترقية افكاره وهي فكاهة لذاتها وتزيد بها فكاهة الحياة فان من اتسعت معارفهُ وعرف اقدار الامور وجد لذة فائقة في الحل والترحال وفي كل ما يراهُ من امور الكون . وخير ثمار التعليم تربية الميل الى المطالعة في سن الصبوة ويزيد نفع المطالعة متى صار الغرض منها زيادة المعرفة ولا سيما اذا رافقها حب البحث في موضوع خاص وتوجيه النظر اليهِ وقويت معها قوة الملاحظة »

المطالعة لا تغني دائماً عن التعليم ولا تقوم مقام المدارس فان القيام في المدرسة والاشتراك في المذاكرات والمناظرات وحضور الدروس والامتحان فيها وسماع اقوال الاساتذة وتفاسيرهم وتأثير التلامذة بعضهم في بعضهم ونحو ذلك من التواعل التي تكون في المدارس الراقية كل ذلك يفعل في التلميذ ما تعجز مطالعة الكتب عن فعلهِ . مَن لم يدخل مدرسة راقية ولا اثَّرت فيهِ هذه التواعل الكثيرة فقد حُرِم من اهم دعائم العلم وما احسن ما قيل

ولست تنال العلم الاَّ بستة سأنبيك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبُلغة وارشاد استاذ وطول زمان

فعلى المرء ان يكتسب ما يستطيع اكتسابهُ من المدرسة و يضيف اليهِ ما يستطيع اكتسابهُ بالمطالعة . ومعما بلغ سن الانسان لا تقصر المدرسة عن فائدتهِ سواء كانت من المدارس العالية او الكلية او الجامعة . ولكن اذا مضى زمن الدرس في المدارس او تعذَّر على المرء الوصول اليها فلا يأسَ لانهُ يجد في المطالعة ما يكفيهِ . فان المطالعة الدقيقة في الكتب النفيسة عليَّة كانت او ادبية تعلِّم المرء تعليماً يكتفيهِ وان لم يكن مثل تعليم المدارس — تعليمُ ما يفيدهُ ويلذُّ لهُ . تعليمُ ما لا ينال بمال الدنيا وتجعلهُ من الذين يُسَرُّ الناس بمعاشرتهم و يستفيدون من الحديث معهم بدلاً من ان يستثقلوهُ و يهربوا منهُ . وكم من رجل علَّم نفسهُ على هذه الصورة فبرع في علم من العلوم او فن من الفنون وفاق فيهِ تلامذة المدارس واساتذتها ولو لم ينل دبلوما الدراسة الثانوية ولا الابتدائية . ومن سنحت لهُ فرص المطالعة واهملها كمن يجد كنزاً و يدوس عليهِ او يغمض عينيهِ عن رؤيتهِ

هذا اذا لم يتخرَّج المرء في مدرسة واما اذا تخرج فيكون الاساس قد وضع في عقلهِ لكي تزداد معارفهُ بالمطالعة لان المدارس مهما أتقنت لا تزيد على كونها تفتح باب المعرفة وتساعد التلميذ على الولوج فيهِ وتجعل الكتب مألوفة لديهِ ومواضيعها قريبة منهُ وهو انما يمرن عقلهُ ويرسخ المعارف في ذهنهِ بالمطالعة . وما يناله غير المتعلم في سنة قد يناله المتعلم في شهر فالتعب قليل والكسب كثير

اثنان يكرهان المطالعة مَن عقلهُ سخيف فلا يجد فيها لذة ومن عقلهُ كثير الاشتغال بامور تصرفهُ من المطالعة . اما الاول فلا فائدة من حثهِ على المطالعة واما الثاني فيميل اليها متى وجد الكتب التي يستفيد منها وتلذُّ لهُ . الذكي الفؤاد الذي يكره المطالعة يكون مشغولاً بمطالب اخرى . اعطهِ كتاباً يبحث في المطالب التي يشتغل بها مهما كانت ولو كانت لعب الورق او صيد السمك فانهُ ينقطع لمطالعتهِ ويتصل منهُ الى غيرهِ . وان لم يفلح فيهِ فاعطهِ

رواية محكمة السبك كبعض روايات دوماس او وزرائيلي او كنن دويل او كالروايات التي وضعناها ونشرناها في المقتطف مثل فتاة مصر وامير لبنان او التي ترجمناها مثل قلب الاسد وكليوباطرة وامينة فانهُ يعكف على مطالعتها . اخبرنا غير واحد انهُ قرأ رواية قلب الاسد كلها في جلسة واحدة لشدة تعلقهِ بها وكتب الينا غير واحد ونحن ننشر رواية فتاة مصر يسألنا عن تتمة الحديث وهل بعض وقائعها حقيقي او موضوع

ويندر ان تتوفر اوقات المطالعة لذوي الاشغال ولكن لا يتعذر ان تعطى الزمن الكافي من فضلات الوقت . فاذا كانت عادة الانسان ان يستيقظ الساعة السادسة صباحاً لم يضرهُ اذا استيقظ ربع ساعة قبلها وشغلها بالمطالعة . واذا انتظر طعامهُ عشر دقائق فليشغلها بالمطالعة . ولا يتعذر على الراغب ان يجد ساعة كاملة للمطالعة كل يوم مهما كانت اشغالهُ كثيرة . واما ايام العطلة فيحسن ان يقضي بعضها في المطالعة والبعض الآخر في النزهة . ولا يحسن بالمرء ان يسافر او يتنقل من مكان الى آخر الاَّ وفي جيبهِ كتاب مفيد يطالع فيهِ كلما سنحت لهُ فرصة ولم تشغلهُ محادثة الناس او مشاهدة المناظر عن المطالعة لانهُ اذا خُيِّر بين ان يجالس قوماً في حديثهم فكاهة او فائدة وبين ان يطالع كتاباً فالحديث مفضَّل لان الانسان اقدر على التعلُّم باذنيهِ منهُ بعينيهِ

ولنحذر المطالع من اجهاد نفسهِ في المطالعة واستطرادها الى حد التعب او ما بعدهُ فانها اذا بلغت هذا الحد لم يبقَ منها نفع بل صارت ضرراً . فلجئنا الضرورة احياناً الى الاستمرار على المطالعة الى هذا الحد فنشعر بتعب شديد ولا يبقى في ذهننا شيء مما نطالعهُ ونحن متعبون

فالشرط الاول اذاً للمطالعة ان تعطيها الزمن الكافي ولو من فضلات وقتك ولكن قف عند حد التعب ولا تجاوزهُ

والشرط الثاني ان لا تطالع الاَّ النفيس من الكتب والمجلات والجرائد لان مطالعة ما دونهُ اضاعة للوقت وتضليل للذهن . والحياة قصيرة لا يحسن ان تضاع في ما لا فائدة منهُ او في ما فائدتهُ قليلة

ولا بدَّ من ان يسأل سائل ما هي الكتب والمجلات التي تشيرون علينا بمطالعتها . وهنا نحتصر عن الجواب . لو كانت المطالعة باللغة الانكليزية او الفرنسوية او الالمانية لسهل علينا ذكر مئات من الكتب والمجلات الحديثة والقديمة اما كتبنا العربية فما تفيد مطالعتهُ وليس فيهِ اوهام تعلق بالذهن وصياغات تفسد الاخلاق فقلما يسهل الوصول اليهِ على جمهور القراء وليس في البلاد مكاتب عمومية ودور للمطالعة تجمع الكتب النفيسة وتسهل على

الناس مطالعتها ولا كتبنا النفيسة مطبوعة بحجم صغير حتى يسهل وضعها في الجيب او الوصول اليها في كل مكان . ولكن الطالب الراغب لا يتعذر عليه ان يجد الكتاب الذي تفيده مطالعته او الجملة التي يجد فيها ضالته ومتى وجد ما يريد مطالعته وجب عليه ان يطالعه على الاسلوب الذي يفيده اكبر فائدة

اذا اختار الانسان كتاباً مفيداً وجعل يطالعه فلا يستفيد منه الفائدة المطلوبة ما لم يعِ فوائده في ذهنه او يكتبها في دفتر حتى يرجع اليها عند الحاجة . وشأنه في ذلك شأن من يرى الطعام الشهي ولا يكتفي برؤيته لونه وشم رائحته بل يأكله ويغذي بدنه به . والكتب غذاء العقول . والذاكرة التي تعي حقائق كثيرة علمية وادبية واشعاراً حكمية وفكاهية تعي كنزاً لا يثمن لكنها لا تحتمل كل ما يريد صاحبها ان تعيه الا في ما ندر فليعرّضها وليقوّها ومتى رأى انها وصلت الى حد يصعب عليها أن تتعداه فليساعدها بالمذكرات يكتبها في دفتر يضعه في جيبه او في مكتبه يدوّن فيه كل فائدة يمر عليها ويستصحبه في سفره ليراجع ما فيه فيرى فوائد لا تقدر قيمتها . ولا نشير بكتابة المذكرات الا متى كلّ عضب الدماغ وامتلأت الذاكرة بمحفوظاتها وصار يصعب عليها استحضارها لان الاعتماد على المذكرات يضعف الذاكرة . ولا بدّ من الاختصار في ما يكتب وذكر اسم الكتاب والصفحة

وهناك امر آخر اكبر فائدة من نقل بعض العبارات والمعاني وهو انتقاد ما قرأته واظهار رأيك فيه من استحسان او استهجان فان انتقاد الكتب على هذه الصورة افضل شيء لترسيخ فوائدها في الذهن والتنكيب عن عيوبها . والكتاب الذي يحرك لانتقادك وتصويبه او تخطئته هو الكتاب الذي تفيدك مطالعته . واذا حقّ للازهار التي تقطفها من حديقة جارك ان تحفظها فالازهار التي تقطفها من حديقة عقلك اولى بالحفظ . فاكتب في مذكرتك ما ترتئيه في الكتب التي تطالعها . ولا تكتب في الصفحة الواحدة اكثر من موضوع واحد ولو لم يملأ ما تكتبه الا سطرين منها لكي يبقى فيها محال لكتابة ما يبدو لك في ذلك الموضوع . ولا تخلط موضوعاً بموضوع في صفحة واحدة . وحينما تراجع ما كتبته بعد ان تمرّ عليه الايام والشهور ترى نفسك ميالاً الى التوسع فيه فافعل وذلك خير تمرين للعقل والذاكرة . وما دونته وتدوينه خير ذخر عقلي تستفيد منه

هذا وقد لخصنا جانباً كبيراً من هذه المقالة من خطبة للدكتور كلارك رسار نشرت في مجلة العلم العام الاميركية